مدن ومواضع

صابر سعيد

كلية علوم الأرض والجغرافيا والتهيئة القطرية – جامعة وهران

تمهيد:

ما من مدينة إلا ونشأت في حيّز من الأرض تم اختياره في ظروف معينة قلما تتكرر، وهذا ما يجعل كل مدينة حالة مُتميزة وليست نسخة مكررة عن غيرها. وعلى هذا الأساس لكل مدينة قصة مع هذا المكان قد تكون مشوقة أو أقل تشويقا، قد تكشف عن عبقرية الإنسان في القديم والحديث، وعن مدى فهمه لبيئته و واقعه وتأقلمه معهما، كما قد تكشف عن عكس ذلك. وأثناء نمو المدينة وتوسعها قد تحافظ على المكان نفسه كما قد تتخلى عنه فلا تبقى له إلا قيمة تاريخية.

الموقع والموضع:

عند دراستهم للمدن يميز الجغرافيون بين مصطلحين مختلفين ولكن كثيرا ما يحدث حولهما اللبس، إنهما الموضع (Le Site) والموقع (La Situation). تقول جاكلين بوجوڤارنيي[1]: "يجب عدم الخلط بين هذين المصطلحين، فالموقع يعني الظروف العامة لِمُحيط المدينة أما الموضع فهو المكان المضبوط الواقعة عليه. فمدينة ليون تحتل موقعا مرموقا في ملتقى الطرق وموضعا على تلال"فورفيار" ذات الحافات الحادة، ولقد أسسها الرومان لتكون عاصمة بلاد الغال الثلاثة ذلك لموقعها الملائم للاتصالات، واختاروا في ذلك موضعا سَهُل الدفاع عنه وحمايته فوق السهول الفيضية الرطبة"[2]. أما عند "بيار جورج"[3] فالموضع مكان اختير لحظة تأسيس منشأة لتلبية حاجات عسكرية، إدارية، تجارية لفترة ما[4].

والموقع عادة مرتبط بسهولة المواصلات، فالمدن الواقعة على شواطئ البحر أو ضفاف الأنهار هي الأكثر عددا لأن الطرق المائية لا تحتاج إلى استصلاح وتساعد على الدخول إلى القارات. وبالإضافة إلى تسهيل المواصلات التي تمنحها الأنهار والبحيرات والبحار، نجد الطرق البرية لها تأثيرا كبيرا على المنشآت البشرية، وبخصوص ذلك تقول بوجوڤارنيي "ومثال ذلك القوافل التي كانت تعبر الصحراء من واحة لأخرى، كذلك طريق الحرير الذي كان يربط بين الصين وحوض البحر المتوسط مشهور منذ القديم."[5] أما الموضع فمرتبط بالخصائص الطبوغرافية أو التضاريسية للمكان الذي أنشئت عليه المدينة. وهو أكثر أهمية من الموقع في حالة المدن ذات الوظيفة الحربية وفي هذا يؤكد جمال حمدان "بل ربما كانت هذه الوظيفة الوحيدة بين الوظائف التي يعادل فيها الموضع الموقع من حيث الأهمية، فإن وجود موقع استراتيجي جيد دون أن يتوفر فيه موضع جيد قد يمنع قيام المدينة الحربية أصلا." [6] وفي حالة المدن التجارية الموضع قليل الأهمية واختياره أمر ثانوي، وتعطى الأولوية كلها لانتخب موقع يخدم الوظيفة التجارية.

وهكذا قلما يتم اختيار موضع المدينة بشكل اعتباطي، بل يتم دائما أو في الغاب على أساس مميزاته واستجابة لحاجات وانشغالات محدّدة. فعادة ما يختار الإنسان الأماكن المرتفعة للحماية من الفيضانات أو ليتمتع بأحسن كشف. وكثيرا ما يكون لدراسة التركيب الجيولوجي لموضع المدينة أهميته، وقد ذكر أحمد على إسماعيل أنه"في حالات كثيرة تُفسر الجيولوجيا جوانب تتعلق بتركيب التربة وقوامها ومدى صلاحيتها للبناء، ومستوى الماء الباطني في موضع المدينة وأثره على بناء العمارات والمنشآت فقد تكون تربة بعض أجزاء المدينة رخوة، مما يعني صعوبة التوسع العمراني فيها، لذا يقف عندها امتداد المدينة أو تستخدم في أغراض تتناسب مع خصائص التربة"[7].

تنوع المواضع:

تتعدد وتتنوع المواضع بتعدد وتنوع المدن، يقول أحمد على إسماعيل "فخصائص الموضع شديدة المحلية، وهي لذلك لا تتكرّر عادة، فلكل مدينة جوانبها الموضعية الخاصة بها والتي تؤثر في نموها وتطورها، وهذا أمر ينبغي أن يدرس مفصلا في الدراسات المنفردة للمدن[8]. فقد يكون الموضع خليجا صغيرا مثل مرسيليا أو واسعا كبجاية، أو سهل ساحلي كمستغانم أو سهل ساحلي بين مستنقعات

وجبل كما هو الشأن لمدينة ريودي جانيرو، أو نتوء صخري على مدخل خليج مثل سالفادور[9]، أو ربوة فوق سهل ساحلي مثل حيفا، أو جزيرة في أرخبيل مثل ستوكلهم[10] أو ربوة على خليج عظيم مثل مدينتي الجزائر ونابولي[11]، أو مصب نهر مثل لوها فر[12]، أو جزيرة طويلة مثل نيويورك، أو على ضفاف الأنهار وفي هذه الحالة يعطي في الغالب مدينة ذات جزأين مثل القاهرة ولندن وباريس كما قد تنشأ عنه مدينتين توأمين أو ما يعرف بظاهرة "المدن التوائم"مثل مينيابوليس[13] وسان بول، القاهرة والجيزة، سوهاج وإخميم[14] في مصر، سيكوندي وتاكورادي[15] في غانا. وقد كانت العناصر الجرمانية في العصور الوسطى تنشئ مدنها على الضفة اليمنى لنهر إلب Elbe[16]، ويعلّل محمد وهيبة هذا الاختيار "لأن الخطر كان يأتيها من الغرب" ويضيف أما المهاجرون الأوروبيون إلى أمريكا الشمالية فكانوا يبنون مدنهم على الضفاف الشرقية للأنهار لأنها تقابلهم حين يجتازون جبال الأبلاش متجهين نحو الغرب[17]. وتفضل المدن الضفة المقعرة للنهر على الضفة المحدبة لأنها أقل رطوبة مثل مدينتي براغ[18] ورُوان[19]، ولكن إذا كانت تضاريس الحلقة المحدبة توفر أحسن كشف وتُظهر جيدا فإنها تفضل لسبب سهولة الدفاع كما هو الحال في مدينتي بوزنسان[20] وبيرن[21]. وقد اختيرت مواضع الكثير من المدن الصناعية في أوروبا على ضفاف الأنهار نظرا لحاجة المصانع لكميات ضخمة من المياه أو لحاجتها لقوة المياه المولدة من الشلالات والمستخدمة كطاقة محركة.

في الجزائر، أقيمت المدن الساحلية في الغالب على موضع خليج يتخذ شكل منجل أو هلال وفي القسم الغربي منه يمتد رأس بحري، وهكذا تكون محمية من الرياح الشمالية والشمالية الغربية السائدة. وبما أنها لا تستطيع التوسع على حساب البحر الواقع شمالها ولا على حساب الجبال الواقعة غربها فقد امتدت نحو الشرق أو نحو الجنوب الشرقي. تتكرّر هذه الظاهرة في كل من مدن وهران والجزائر وبجاية وجيجل وسكيكدة وعنابة[22]. وتعد مدينة بجاية نموذجا معبرا عن المدن الساحلية في الجزائر، حيث تشغل أقصى غرب خليج وهي معلقة على منحدر جبل قوراية الذي يحميها تماما من الرياح الشمالية ويجعل منا أحد المرافئ الأكثر أمنا في شمال إفريقيا. ويصفها خلادي قائلا"ومنازل المدينة القديمة متشبثة بالجبل انطلاقا من البحر إلى علو حوالي مائتي متر في صفوف متراصة يعلوا بعضها البعض، وتقدم للزائر القادم من البحر صورة مدرج أو مسرح (Amphithéâtre) مبني في الماء"[23]. أما المدن الداخلية في الجزائر فتنتظم على محور وسط يمتد من تلمسان إلى سوق أهراس، واختيرت لها عادة مواضع محصنة طبيعيا كانت في الماضي السر في ازدهارها أما اليوم فهي بمثابة كابوس يؤرق اختصاصيي التعمير، فبالإضافة إلى المشاكل المعتادة المرتبطة بتوسع المدن تضاف في هذه الحالة مشاكل المواضع المعلقة في أعالي الجبال وذات الانحدار والضيق الشديدين. و يبين "مارك كوت" أنها "أثناء توسعها نزلت هذه المدن إلى المناطق الأقل وعورة وإلى المناطق السهلية، مُلتهمة في طريقها الحدائق والحقول التي كانت تطوّقها في السابق وتوفر جزءا من تموينها بالخضر والفواكه"[24]

واختار الاستعمار الفرنسي للمدن التي أنشأها في الجزائر والتي تعرف بالمدن الاستعمارية مواضع سهلية مثل ما هو الحال في سيدي بلعباس وغليزان وسطيف والعلمة وباتنة وبرج بوعريرج. ولعل مرد هذا الاختيار إلى يسر التشييد الذي يكون أقل تكلفة مقارنة بأرضية وعرة وسهولة تأمين المدينة. وقد اختار لها مخطط يعرف بالشطرنجي أو الشبكي وأحيانا شبكة الشواء، وتقوم فكرته على أساس تعامد الشوارع على بعضها وتقاطعها بزوايا قائمة، وقد أُقتبس من المراكز العسكرية والمدن الرومانية، وفي ذلك يورد أحمد علي اسماعيل: "كانت المدن الرومانية تأخذ غالبا شكل المستطيل أو المربع، وغالبا ما كان يقطع المدينة طريقان رئيسيان يتعامدان على الجهات الأصلية وتتقاطع معهما الشوارع الفرعية، وفي الميدان الرئيسي الذي يوجد عند تقاطع الشارعين الرئيسيين يوجد الفورم (Forum) وهو الميدان الذي يمثل قلب المدن الرومانية، وفيه توجد المعابد والأسواق ومراكز الحكم والإدارة"[25] والمخطط الشطرنجي هو كذلك المميز لمدن المعمرين الانجلوسكسونيين فيما وراء البحار سواء في الولايات المتحدة أو كندا أو استراليا، وحسب بوجوڤارنيي أن"مثل هذا المخطط يتلاءم جيدا مع تقطيع الأراضي للبناء وتقسيم المدينة إلى مقاطع إدارية، وبناء المنازل الكتلية، وسهولة إعادتها، ولكنه لا يخلو من عيوب أهما أن الطرق تتقاطع بزوايا قائمة وبالتالي تحجب الرؤية عند ملتقى الطرق، والرياح لا تجد أمامها عائقا."[26] ولكن بساطة المخطط الشطرنجي سواء في رسمه على الورق أو في تنفيذه على الطبيعة، كانت من أهم عوامل انتشاره ورواجه عبر القرون.

وتجدر الإشارة كما يقول "محمد وهيبة" إلى أن "الإنسان أصبح قادرا على تغيير بعض صفات المكان، فمثلا حوّل المجاري المائية من السطح إلى ما تحت السطح وردم المستنقعات وسوى التلال الصغيرة وملأ الوديان بالرماد والمخلفات. ولهذا فمن الصعب في بعض الحالات تصور صفات المكان الأولي والدور الذي لعبته في تاريخ المدينة. [27]"

تطوّر المواضع:

المدينة كائن حي ينمو، وفي أحيان كثيرة لا يستطيع موضعها الاستجابة لمتطلبات هذا النمو فيتم التخلي عنه، ولا تبقى له إلا قيمة تاريخية. فقد كانت التحصينات الطبيعية من جبال وعرة وأودية عميقة كافية لحماية المدن، ولكن مع تطور آلة الحرب حلّت محاها الحصون وهي الأخرى تم التخلي عنها حين أثبتت عدم جدوها أمام تقنيات الحرب الحديثة. وهكذا تذكر بوجوڤارنيي "أن أغلب المواضع القديمة وقع التخلي عنها قليلا أو كثيرا باعتبارها القطب المركزي للحياة الحضرية، وهذا التطور حدث في عدة مراحل"[28] ويضيف تريكار "للمواضع المختلفة قيم تختلف حسب تطور فنون الحرب والمواصلات. فإذا ما تغيّرت هذه وتبدلت تبديلا هاما نشأ عنها هجران الموضع القديم إلى موضع آخر يتلاءم مع الفن الحديث. وهذا ما حدث فعليا لأكثر المدن المعلقة حيث كان يسهل الدفاع عنها والتي أصبحت اليوم بعيدة عن خطوط المواصلات وتفتقر غالبا إلى المياه الكافية " [29]

وطبيعة الموضع تؤثر تأثيرا واضحا على المخطط أو الشكل الذي ستأخذه المدينة. فالمواضع ذات الصفات الدفاعية التي كانت توفر الحماية للمجتمع المدني من خطر المخربين والطامعين أصبحت اليوم عقبة في سبيل تطور مدنها ونموها، حيث الوصول إليها صعب ورقعتها ضيقة، وكان من بين حلول هذه المشكلة النزول من المرتفعات إلى السهل أو ترك المدينة القديمة على حالها وبناء مدينة جديدة في الأرض السهلية القريبة. وقد أدى ذلك إلى ظاهرة شائعة جدا هي ظاهرة المدن المزدوجة رأسيا:مدينة حربية قديمة معلقة عل أعلى التل، ومدينة حديثة تجارية عند قاعدته.

والمدن التي تقوم على الوديان تتخذ شكلا طوليا نتيجة لامتداد الطرق وبالتالي المباني في اتجاه الوادي، فقد نمت كلكتا[30] في الهند على طول مجرى نهر هوجلي[31]. ويكون نمو مدن الأنهار عادة في جانب واحد من النهر، وإذا حدث أن امتدت على كلا ضفتيه فان النمو وحجم العمران لا يكون متوازنا من الناحيتين، ففي مدينة لندن لا زالت المناطق الواقعة شمال نهر التايمز[32] ذات أهمية اكبر من تلك الواقعة جنوبه.

وجود مانع كجبل أو تل أو بحيرة يحول دون نمو المدينة في اتجاهه فتتوسع في أحد الاتجاهات الأخرى أو جميعها. وقد تتدخل بعض عناصر المناخ في تحديد محاور نمو المدن، وخاصة ما يتعلق باتجاه الرياح، فالمصانع التي تبعث بالأدخنة أو الأتربة أو روائح غير محببة تقام في منصرف الرياح، بينما تكون الأحياء السكنية في مهب الريح، ويصدق ذلك على كل المدن الجزائرية التي أنشئت بها مناطق صناعية. وامتداد مدينة قسنطينة في موضع ذي طبوغرافية صعبة تتداخل فيها الهضاب والتلال والمنخفضات والأودية جعل تعميرها متقطع وعجّل بتشبع موضعها، مما جعل جزءا من سكانها يهجرها طواعية نحو مدن تابعة مثل الخروب وعين سمار وديدوش مراد وعلي منجلي. [33] وكانت المدن المسوّرة تنمو في حلقات دائرية، ولكن بعد أن هُدمت الأسوار بدأت تنموا على طول الطرق الرئيسية متخذة شكل نجمة تَمُد أذرعا كثيرة في اتجاهات متعددة. وفي مدينة شيكاغو لم تكن الحلقات تامة لوجود بحيرة ميتشجان شرقها.

في البلدان المستَعْمَرة أقام الاستعمار مدنا جديدة على مقربة من أخرى قديمة مؤديا إلى ما عرف بازدواجية المواضع كما هو الحال في مدينة الجزائر. تقول بوجوڤارنيي "ومثال ذلك مدينة الجزائر حيث تظهر فيها المدينة القديمة الممثلة في القصبة المعلقة على ربوة والملتصقة بالمدينة الحديثة المرتكزة على ميدان عظيم مشرف على البحر هو مقر الحكومة الوطنية حاليا. ومثل هذه الحالة نجدها في أغلب مدن شمال افريقيا"[34] وفي تلمسان حطم الاستعمار الفرنسي أجزاء من المدينة القديمة ليقيم مكانها حي استعماري يمثل استثناءا في المغرب العربي فعلى خلاف بقية مدن المغرب فرض الحي الاستعماري نفسه كمركز للمدينة وللمدينة القديمة في الوقت ذاته،[35] هذه العملية - ازدواجية المواضع- تعد رمزا لحلول دولة جديدة وللتعالي على السكان المحليين.

أخيرا، يجب أن لا نبالغ كثيرا في قيمة الموضع، خاصة وأن أي موضع إلا ويكون مناسبا في بداية نشأة المدينة، ولكن تظهر له عيوب بمرور الأزمنة وتغير الظروف. والتقنيات الحديثة في الإنشاء والتعمير مكنت الإنسان من تجاوز العوائق الناتجة عن الموضع، ومكنته من بناء مواضع اصطناعية على مقاس احتياجاته.

الهوامش

1- جاكلين بوجوڤارنيي:جغرافية فرنسية من مواليد عام 1917، وهي من أهم جغرافيات القرن العشرين. كان لها تأثير وطني (في فرنسا) وعالمي، ترأست الجمعية الجغرافية لباريس من 1983الى 1995، كما كانت تدير النشرة العلمية"L'information Géographique" توفيت سنة 1995.

2- جاكلين بوجوڤارني، "الجغرافية الحضرية"، ترجمة:حليمي عبدا لقادر، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1989، ص92.

3- بيار جورج:جغرافي فرنسي من مواليد عام 1909 انتخب لأكاديمية العلوم الخلاقية والسياسية سنة1980 ولكرسي مارسيل دونان.

4- بيار جورج، "معجم المصطلحات الجغرافية"، ط2، ترجمة، حمد الطفيلي، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، دت، ص827.

5- جاكلين بوجوڤارنيي، المرجع السابق، ص93.

6- جمال حمدان، "جغرافية المدن"، ط2، دار عالم الكتب، القاهرة، دت، ص31

7-أحمد علي إسماعيل، "دراسات في جغرافية المدن"، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، 1983، ص252.

8- أحمد علي إسماعيل، المرجع نفسه، ص254.

9- سالفادور: مدينة في شمال شرق البرازيل وهي عاصمة ولاية باهيا، تقع في ارض مثلثة محصورة بين المحيط الأطلسي من الشرق و خليج كل القديسين من الغرب.

10- ستوكهولم :هي عاصمة مملكة السويد وولاية ستوكهولم، وأهم مدينة في المملكة، تقع على مجمع بحيرة مالار وبحر البلطيق في خليج مزدحم بالجزر، جاعلاً منها إحدى أجمل مدن العالم.

11- نابولي: هي ثالث أكبر مدن إيطاليا، تقع في جنوب البلاد، على ساحل البحر الأبيض المتوسط على خليج نابولي و بالقرب منها يقع بركان فيزوف.

12- لوها فر: مدينة تقع في النورماندي شمال غرب فرنسا. تأسست عام 1517 على الضفة الشرقية لمصب نهر السين.

13- مينيابولس: هي أكبر مدينة في ولاية مينيسوتا الواقعة في شمال الولايات المتحدة الأمريكية. تقع على ضفتي نهر مسيسيبي .تجاورها مدينة سانت بول عاصمة الولاية، وتلقب المدينتان معا بالتوأم.

14-سوهاج: هي العاصمة الإدارية والثقافية والاقتصادية لمحافظة سوهاج في مصر، وهي واقعة على الضفة الغربية لنهر النيل وتقابلها مدينة إخميم على الضفة الشرقية ولذا تشكلان توأم.

15- **سيكوندي تاكورادي(Sekondi-Takoradi):مدينة على الساحل الأطلسي وعاصمة الإقليم الغربي لجمهورية غانا و هي ثالث أكبر مدينة بالبلاد. تتشكل من جزأين سيكوندي و تاكورادي** وهما تشكلان توأم.

16- نهر إلب: من أهم أنهار أوروبا الوسطى، ينبع من جبال الكارابات في جمهورية التشيك ويخترق التشيك وألمانيا التي يقع جزءه الأكبر بها قبل أن يصب قرب مدينة هامبورغ في بحر الشمال .

17-عبد الفتاح محمد وهيبة، "في جغرافية العمران"، دار النهضة العربية، بيروت، 1980، ص71.

18- براغ :هي عاصمة جمهورية التشيك وأكبر مدنها. تقع على نهر فلتافا في وسط منطقة بوهيميا التاريخية. لبراغ العديد من الألقاب مثل المدينة الذهبية وأم المدن وقلب أوروبا وتعرف بالمدينة ذات المائة برج نظرا لكثرة الأبراج فوق كنائسها وقصورها. منذ العام 1992 م أُدرجت في لائحة اليونسكو كموقع تراث ثقافي عالمي.

19- روان : مدينة فرنسية، تقع في شمال غرب البلاد، كانت العاصمة التاريخية للنورماندي .وهي عاصمة مقاطعة مَصَبّ السينSeine-Maritime . أنشئت علة الضفة اليسرى لنهر السين في إحدى تعرجاته المحدبة.

20- بيزانسون (Besançon) :هي مدينة تقع في شرق فرنسا على أحد تعرجات نهر دوبس و(Doubs)هي عاصمة فرانش كونته .لعبت المدينة دورا هاما في العصور الرومانية وجعلت منها التضاريس الجغرافية معقلاً عسكرياً هاماً في شرق فرنسا خاصة أنها على الحدود مع سويسرا وهي أيضاً مركز سياسي.

21-برن (Berne):هي عاصمة سويسرا الإدارية ورابع أكبر مدنها من حيث عدد السكان وهي عاصمة كانتون برن. بنيت المدينة في شبه الجزيرة المشكلة من نهر الآر ولكنها سرعان ما نمت خارج الحدود الطبيعية للنهر ولهذا السبب بنيت العديد من الجسور على الآر كجسر كرشنفلد وجسر نايدج.

22-Cote. M, :L'espace Algérien, prémices d'un aménagement, OPU,1983. p223.

23-Kheladi. M, :La planification urbaine en Algérie, OPU,1991. p108.

24-Cote. M, :op. cit,p22 .5

25-أحمد علي إسماعيل، المرجع السابق، ص59.

26- جاكلين بوجوڤارنيي، المرجع السابق، ص106.

27-عبد الفتاح محمد وهيبة، المرجع السابق، ص76.

28- جاكلين بوجوڤارنيي، المرجع السابق، ص96.

29-ج. تريكار، "مدخل إلى الأعمال التطبيقية في الجغرافيا"، ترجمة:د. حليمي عبدا لقادر، الجزائر:ديوان المطبوعات الجامعية، 1982، ص72.

30- كلكتا: مدينة هندية تقع شرق الهند عاصمة ولاية البنغال الغربي المحاذية لبنغلاديش .وتعتبر رابع أكبر مدينة في الهند، تقع على شاطئ خليج البنغال. تمتد المدينة في اتجاه شمال-جنوب على الضفة الغربية لنهر هوجلي(Hooghly).

31- هوجلي(Hooghly):من الأنهار الساحلية في الهند، قابليته للملاحة جعلت الاستعمار الأوروبي ينشئ عليه العديد من المدن التجارية، كلكتا(البريطانيين)، سندرناقور(الفرنسيين)، سيرمبور(البريطانيين)، شينسورا(الهولنديين).

32- التِيمز (Thames) :هو نهر يقع في جنوب إنكلترا في المملكة المتحدة، يصب في بحر الشمال إلى جهة الشرق من مدينة لوندرس.

33-Boussouf, R , : Constantine : D'une ville attractive à une ville répulsive, laboratoire d'Aménagement du territoire, Université de Constantine, Algérie.

34- جاكلين بوجوفارنيى، ، المرجع السابق، ص96.

35-Albyat. M, :La croissance urbaine de Tlemcen, Cahiers géographiques de l’ouest n°9-10,1987. p217.